

الفصل الثاني

الميدان الصوتي

إنّ اللغة في حقيقتها مجموعة من الأصوات الإنسانية العديدة تصدر عن جهاز خاص متفاوتة، ومن عدد من الأحبال الصوتية، ثم تتألف هذه الأصوات فيما بينها ليتكون منها مجموعات مختلفة، كل واحدة منها تؤدي معنى من المعاني الكثيرة.

وبقدر ما تزيد حاجيات المجتمع وتثرى معانيه يزيد عدد هذه المجموعات الصوتية حتى تكون متجاوبة تماماً مع هذه المعاني وتلك الحاجيات. ومن هنا تختلف الثروة اللفظية من لغة إلى أخرى ومن لهجة إلى أخرى، بل في اللغة الواحدة تختلف هذه الثروة اللفظية من عصر إلى عصر آخر بالنسبة لحيات اللغة نفسها.

فهناك من المجتمعات الإنسانية من لا يزال يعيش في عالم المادة وفي دنيا الأمور الحسيّة. لذلك لا يحتاج إلا إلى عدد محدود الألفاظ اللغويّة تسد حاجة دنياه وتتجاوب مع ما يدور في عالمه، وهناك من استطاع -لعوامل مختلفة- أن يظفر بدرجة من التطور والتقدّم فكرياً واجتماعياً وأدبياً، فتراه يضيف إلى عالمه المادّي ودنياه الحسيّة أموراً تتصل بعالم نفسي روحي أو معنوي فيصنع لذلك ألفاظاً جديدة من أصوات أخرى -على ضوء تجربته- تشرح مدلول هذه الأمور النفسية أو الروحيّة أو المعنوية. فاللغة أو اللهجة مرآة للمجتمع الذي يتداولها، لأنها تعكس قدرته على استعمال الجهاز الصوتي في استخراج الأصوات. ولقد أردت في هذا الفصل أن أتناول أبرز جوانب النظام الصوتي للهجة قبيلة الحمر، تلك اللهجة التي نزع متحدثوها عرباً واستقروا في بقاع بين تخوم المفاوز ومشارف الآجام، موضحاً أبرز السمات النطقية لصفات الحروف والتراكيب الصوتية.

المبحث الأول: الأصوات الشفوية والأصوات الشفوية الأسنانية

الحروف الشفوية هي الحروف التي يستدعي النطق بها استعمال الشفتين أو على الأقل الشفة السفلى. وهي في اللغة العربية الباء والجيم والواو.^(١) الباء صوت شديد مجهور مرقق انفجاري^(٢) مزدوج يتم نطقه بضم الشفتين ورفع الطبق^(٣)، ليغلق ما بين الحلق والتجويف

(١) صبحي الصالح (١٣٨٨هـ): دراسات في فقه اللغة، ط٧، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٢٨٠.

(٢) رمضان عبد الوهاب (١٩٨٥م): المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، القاهرة، ص ٤٢.

(٣) مصطفى حركات (١٤١٨هـ) الصوتيات والفونولوجيا، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٥٩.

الأنفيّ مع ذبذبة الأوتار الصوتية. أما الميم، فإنّه حرف شديد، شفوي مزدوج، خيشومي وهو مستمر لإمكانية تمديده نوعاً ما عند الوقف. الواو يعتبر ضمن الأصوات الصامتة وهو صوت مجهور.^(١)

والحمر ينطقون صوت الباء على الوصف المذكور. ولكن الحمر أحياناً ينحون إلى قلب النون ميماً بتأثير الباء في بعض الكلمات، وذلك إذا سبقت الباء وكانت ساكنة إذ تتأثر النون الساكنة بالباء التالية لها فتقلب إلى صوت من مخرج الباء هو صوت الميم وهو صوت شفويّ كالباء. وهذا ما سماه علماء القراءات بالإقلاب، في مثل قوله تعالى: (اذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ وَميثاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ)^(٢) وفي قوله تعالى: (إِذْ انبَعَثَ أَشْقَاهَا)^(٣) ومثل ذلك قول عامة الناس اليوم عمبر في عنبر، وقد استرقت السمع مرةً لأحد أقحاح بداء الحمر ينشد الدوبيت، فاقتطفت منه ما يلي:

لونك ذهباً صفارو عجيب

طلعة نهدك سمبل العنكوليب^(٤)

فهو يصف فتاة لونها أصفر فاقع كالعسجد. وقد برز نهداها كسنابل (قصب) العنكوليب، والشاهد في قوله هذا "سمبل" وأصل الكلمة سنبل. ومثله قول الحمر وجُلّ أهل السودان "هباتة" في هباتة، وأصلها فيما أرى نهابة مثل قولنا علامة وفهامة على سبيل المبالغة والفعل نهب حصل فيه قلب مكاني فصار هنب كقولنا خَنَخْن^(٥) ونَخْنَخ^(٦) وهَلَع^(٧) وعلَه^(٨) ولزج وزلج.^(٩) ثم لحقت به تاء زائدة في نظري فصارت هنبت. وقد وردت كلمات في مواضع أخرى أبدل فيها الحمر وبعض ناطقي العربية بكردفان، الباء ميماً

(١) المدخل إلى علم اللغة: مرجع سابق، ص ٤٢.

(٢) سورة المائدة: الآية ٧.

(٣) سورة الشمس: الآية ١٢.

(٤) مقابلة: حامد علي إبراهيم: سوق أبو قلب ١٨/١٠/٢٠٠٥م.

(٥) لسان العرب: مرجع سابق، ج ١٤، ص ٢١٧، مادة "تخنخ".

(٦) المرجع نفسه، ج ٥، ص ١٧١، مادة "خفن".

(٧) المرجع نفسه، ج ١٥، ص ٧٩، مادة "هلع".

(٨) المرجع نفسه، ج ١٠، ص ٢٦٦، مادة "عله".

(٩) المرجع نفسه، ج ١٣، ص ١٩٥.

نحو "مسراع" في "بسراع" أي بسرعة وكذلك كبريت يقولون فيها كبريت ثم تُحال إلى كمسريت وابن عمي

لزم في لزب، بمعنى لصيق العلاقة قال الله تعالى: (إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّن طِينٍ لَّازِبٍ)^(١) أي لاصق لزج^(٢). وقد وقع هذا الإبدال لتقارب مخارج الباء والميم. وهذا يفسر قول الحمر وكثير من ناطقي العربية بالسودان: بكان في مكان، وسناب في سنام وبنبر في منبر. ومما جاء على غرارهِ، قول العرب بككة^(٣) في مكة واطبأن^(٤) في اطمأن.

إضافة إلى ذلك فهم يبدلون الميم نوناً أيضاً في نحو قولهم نعيمز في معيز. وهذا الضرب من التعاقب بين صوتي الميم والنون شائع في كلام العرب، من ذلك قولهم: (امتقع- وابتقع- وانتقع)^(٥) وقاتن في قاتم^(٦). وتم الإبدال في النماذج السابقة لأن الميم والنون صوتان أنفيان مجهوران غير أن الميم شفوي والنون لثوي^(٧).

ومن النادر أن يقلب الحمر الباء فاءً. ومثال ذلك فرتك بمعنى برتك. تقول العرب فرتك عمله إذا أفسده. قال صاحب اللسان: يكون ذلك في النسيج وغيره. وإبدال الباء فاء ورد في لغة بني حنظلة وهم بطن من تميم^(٨). وقد جاء في معجم لسان العرب قول الأزهري "سمعت أعرابياً من بني فزارة يقول لخادم له: ألا وارفع لي عن صعيد الأرض مصطبةً أبيت عليها بالليل. فرفع له من السهلة شبة دكان مربع قدر ذراع من الأرض يتقي بها من الهوام بالليل. قال: وسمعت آخر من بني حنظلة سماها المصطقة بالفاء"^(٩). وقد ورد نطق الفاء تارةً بالتشديد وتارةً أخرى من غير تشديد وتقول العرب انفلج الصبح وانبلج إذا ظهر^(١٠).

(١) سورة الصافات، الآية ١١.

(٢) لسان العرب، مرجع سابق، ج ١٣، ص ١٩٣، مادة "لزب".

(٣) المرجع نفسه، ج ١٠، ص ٤٠٢، مادة "بكك".

(٤) الفراهيدي، الخليل بن أحمد (١٩٦٧م): العين، ج ٧، ت. د. عبد الله درويش، بغداد، مادة "طين"، ص ٤٣٨، ولسان العرب، مرجع سابق، ج ١٣، مادة "طمّن" ص ٢٦٨.

(٥) لسان العرب، مرجع سابق، ج ٨، ص ٣٤١، مادة "تقع".

(٦) المرجع نفسه، ج ١٢، ص ٤٦١، مادة "قتم". المرجع نفسه، ج ١٣، ص ٣٣٠، مادة "قتن".

(٧) كمال بشر (١٩٨٧م): علم اللغة العام، مكتبة الشباب، القاهرة، ص ٧٢.

(٨) لسان العرب: مرجع سابق، ج ٢، ص ٤٩، مادة "برت".

(٩) المرجع نفسه، ص ١١، مادة "صطب".

(١٠) المرجع نفسه، ج ٢، ص ٣٤٨، مادة "فلج".

وإذا أردنا أن نفسر إبدال الباء فاء عند الحمر وبني حنظلة وغيرهم فإننا نلاحظ أن الباء والفاء متجاوران مخرجاً. فالباء مما بين الشفتين، أما الفاء فمن باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا. فالتبادل بينهم تجيزه القوانين الصوتية.^(١١)

المبحث الثاني: أصوات الصّفير

حروف الصّفير هي السين والصاد والزاي. وتتفق في أنها من مخرج واحد هو طرف اللسان وفوق الثنايا العليا، وأنها جميعها رخوة^(١٢). ويحدث عند النطق صفير عالٍ لا يشاركها في نسبة علوه غيرها من الأصوات.^(١٣) وذلك بسبب ضيق مخرج الهواء إذ أن اللسان يسدّ كل المنافذ الجانبية ولا يترك إلا طريقاً منخفضاً يمر به الهواء المقذوف، ونحصل على حرف صفيريّ وهو السين والصاد مهموساً مفخماً، والزاي مجهوراً.^(١٤)

وقد بقي صوت السين في لهجة الحمر في جلّ المفردات على ما هو عليه في اللغة العربية الفصحى إلا أنّه يفخم في بعض الكلمات لينقلب صاداً. ومثيل ذلك قولهم: صُرّة في سُرّة كعامة أهل السودان، وخُرس في خُرس وصُرّة في سُرّة ويعنون بذلك تلك الدويبة التي تتغذى بالغلة عند بدء إنباتها في التربة. ويلاحظ فيما سبق ذكره أن هذه إحدى خصائص الراء إذ يميل إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له.^(١٥) ومما ورد في هذا القبيل –أي التفخيم والقلب– لدى الحمر قولهم بصاط في بساط وصبق في سبق ولصق في لسق. ويوافقون بني تميم في ذلك النطق.^(١٦) ويقولون الصّقط في السّقط وهو ما تنأثر من قطع الجليد على الأرض وهم يعنون به البرد القارس.

وقد أشار ابن جنّي إلى هذا حين ذكر أنه إذا جاء بعد السين غين أو خاء أو قاف أو طاء، جاز قلبها صاداً.^(١٧) وبما أن القراءات القرآنية –في نظري– مرآة للهجات العرب فقد وردت هذه الصيغ في القراءات الشاذّة. ويعدّها بعض علماء اللغة حجة.^(١٨) ويروى عن النبي أنه قرأ

(١١) سيبويه (١٩٦٦م): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٤، القاهرة، مصر، ص٤٣٣.

(١٢) سيبويه (١٩٦٦م): الكتاب، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج٤، القاهرة، ص٤٣٣-٤٣٥.

(١٣) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ط٥، مكتبة الأنجلومصرية، القاهرة، ص٧٤.

(١٤) مصطفى حركات: الصوتيات والفونولوجيا، مرجع سابق، ص٦١.

(١٥) د. رمضان عبد التواب: التطور اللغوي: مظاهره وعمله وقوانينه، ط٢، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص٣٨.

(١٦) د. ضاحي عبد الباقي (١٩٨٥): لغة تميم، المطابع الأميرية، القاهرة، ص١٣٧.

(١٧) ابن جنّي (١٩٥٤): سر صناعة الإعراب، ت. مصطفى السقا وآخرين، ج١، القاهرة، ص٢٢٠.

(١٨) لغة تميم: مرجع سابق، ص١٥٧.

(باصقات) في قوله تعالى: (وَالنَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ)^(٨) ^(٩). وقرأ ابن عباس ويحيى بن عُمارة (أصبغ) في قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)^(١) ^(٢) وهي لغة بني العنبر.^(٣) وقرأ جمهور القراء كلمة السَّراط بالصاد ما عدا رويساً عن يعقوب فإنه يبدله سيناً، ولقنبل فيه وجهان وذلك لأن كلمة الصراط شاعت بالصاد^(٤) وهي لغة قريش الجيدة الفصيحة أكثر من شيوعها بالسين رغم كونها الأصل.^(٥)

وهذا النوع من الاستعمال شائع في الكويت والإمارات العربية وشرق المملكة العربية السعودية (وهي البيئة التميمية). فيقولون: صخلة في سخلة ومن أمثالهم (الطَّول طول نخلة والعقل عقل صخلة)^(٦). وسمعت في إبان إقامتي في أقصى جنوب الحجاز، أهل منطقة جيزان يقولون أرض "صبخة" أي مملوحة في "سبخة" وسكان إقليم نجران يقولون: ثوب "وصخ" في "وسخ".

وعلنا نجد تفسيراً لنطق السين صاداً عند الحمر وغيرهم من بداءة السودان وبني تميم. فلو رجعنا لوصف العلماء لهذين الصوتين، لوجدنا أن الصاد حرفٌ مطبقاً يناسب البيئة البدوية لما فيه استعلاء بيّن. وتطرق ابن جنّي إلى ذلك إذ يقول: (وذلك أن حروف الاستعلاء تجتذب السين عن سفالتها إلى تعاليهن والصاد مستعلية)^(٧) ويتضح لنا مما سبق أن هذا نوع من التماثل التخلفي وهو أيضاً جزئي منه المتصل والمنفصل.

أما صوت الزاي فإنه ينطق عند الحمر عربياً فصيحاً. وأود أن أشير إلى أن هنالك كلمات نادرة يؤثر فيها الحمر الزاي على الصاد وعلى السين. وقد سمعت منهم من يقول زحليّة في سحليّة وزعف في سعف (كعامة أهل السودان) يريدون بذلك سعف أشجار النخيل والدوم والدليب. ومنهم من يقول (زقي zagay الغنم) يريدون سقى، وأزباب في أسباب كقول البعض:

^(٨) سورة ق، الآية ١٠.

^(٩) ابن جنّي (١٩٦٦م): المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، ت. علي النجدي ناصف وآخرين، ج٢، القاهرة، ص ٢٨٢.

^(١) سورة لقمان، الآية ٢٠.

^(٢) د. عبد اللطيف الخطيب: معجم القراءات، ج٧، ص ١٩٧. المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها، مرجع سابق، ج٢، ص ١٦٨.

^(٣) ضاحي عبد الباقي: لغة تميم، مرجع سابق، ص ١٥٧.

^(٤) محمد بن اجزري (١٩٧٢): تخبير التسير في قراءة الأئمة العشرة، ت. محمد صادق القمحاوي وعبد الفتاح القاضي، القاهرة، ص ٤١-٤٢.

^(٥) مختار بن سيدي الغوث (١٩٩٣): لهجة قريش، النادي الأدبي بالرياض، السعودية، ص ١٣٤.

^(٦) الشيخ جلال حنفي (١٩٤٦): معجم الألفاظ الكويتية، بغداد، ص ٢٤١.

^(٧) لغة تميم: مرجع سابق، ص ١٥٥.

أوريني أزياب زعلك. بإشباع أرني وهي لغة أهل الحجاز^(٨).
وحكى المزمخشري فقال:

(سمعتهم يقولون: أورينيه بمعنى أرينيه أي أبرزه لي).^(١)

وهكذا تمّ التخلص في الأمثلة التي أوردتها سابقاً من صفة الهمس في صوت السين باستبداله بالزاي المجهور. وحدث هذا في رأيي لتدخل قانون السهولة والتيسير. وهذا النوع من الإبدال عينه يرد في لغات بعض العرب. فأهل اليمن مثلاً يقولون: أزد في أسد^(٢) وحللت مرة مع رفاق منهم في الحجاز، فسمعتهم يقولون: "زلطة" في سلطة الخضر. وأهل الموصل وبعض أهل السودان يقولون: "نزبة" في نسبة^(٣). وأهل نجد ينطقون بعض الكلمات على ذلك النسق. وذهب كل من ابن جنّي والزمخشريّ وابن الحاجب إلى أن كلباً تقلب السين زايّاً مع القاف خاصة، فيقولون في سقر (زقر). وقد عزي قلب السين زايّاً إلى قبائل بني القيم وبني عذرة ذات الجذور اليمنية^(٤). والحرر ينطقون كذلك في بعض الكلمات الصاد زايّاً، نحو قولهم: الوليد "زرخ" في صرخ، أيضاً بزق في بصق وهذه لغة ربيعة^(٥). ولقد ورد هذا النوع من الإبدال في اللهجات العربية القديمة إذ قرئ "يزدر" في قوله تعالى: (وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ)^(٦) والشاهد هنا في يزدر إذ نلاحظ التماثل التخلفي الجزئي المتصل. وقيل هذه لغة طي إذ تغلب كل صاد ساكنة قبل الدال زايّاً^(٧). وقرأ قالون الزراط في قوله تعالى: (اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ)^(٨) والتماثل هنا تخلفي جزئي منفصل. وذكر صاحب المقدمتان في علوم القرآن أن الذي يشم بالصاد زايّاً يحافظ على بقاء الإطباق في الصاد^(٩). ولعلها تنطق مثل الظاء العامية لدينا بالسودان. ولا غرابة في قلب الصاد زايّاً

(٨) لهجة قريش: مرجع سابق، ص ١٤٩.

(١) الزمخشري، أبو القاسم جار محمود بن عمر (١٩٦٠): أساس البلاغة، مادة وري، القاهرة، مصر.

(٢) إبراهيم السامرائي: في اللهجات العربية القديمة، بغداد، ص ٩٧.

(٣) مجلة جامعة الآداب، جامعة بغداد، العدد (١٣)، ص ٢٥.

(٤) صالحة راشد غنيم: اللهجات في كتاب سيبويه، ط ١، دار المدني، جدة، السعودية، ص ٢٤٨.

(٥) لغة تميم: مرجع سابق، ص ١٣٧.

(٦) سورة القصص، الآية ٢٣.

(٧) أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي (١٩٦٠م): الإبدال، ت. عزالدين التنوخي، ج ٢، دمشق، ص ١٢٦-١٢٨.

(٨) سورة الفاتحة، الآية ٦.

(٩) أثر جفري (مستشرق) (١٩٥٤م): مقدمتان في علوم القرآن، القاهرة، ص ١٤٧.

عند الحمر وغيـرهم إذا أدركنا الصلـة
بين صوتي الصاد والزاي مما يجعل
التناوب بينهما

مستساغاً، بل وفي اللهجات العامية الحديثة لأهل القاهرة "أزدير" في "قصدير" وأهل تطوان
بالمغرب يقولون "زعلوك" في صعلوك.^(١)

خلاصة القول في هذا المبحث أننا إذا أمعنا النظر في الأنماط السابقة من الكلمات التي تعاقب
فيها صوت الصاد والسين، فإننا نلاحظ أن الأصل فيها هو المروي بصوت السين، ويمثل
البنية العميقة وهي السائدة في الاستعمال اللغوي الفصيح وهو الأكثر شيوعاً. وإحلال الصاد
محل السين، قد حدث بسبب اختلاف البيئات ويمثل البنية السطحية للكلمة لأنه في الغالب يرد
على المستوى اللّهجي، أي في نطاق ضيق إذ يحول صوت السين المرقق إلى صوت الصاد
المفخم ويبدو لنا أصل هذا التغيير تركيبياً في كثير من النماذج بسبب تأثر السين بما جاورها.

(١) د. عبد المنعم سيد عبد العال (١٩٦٨): لهجة شمال المغرب، القاهرة، مصر، ص ٨٠.

المبحث الثالث: الأصوات المائعة

الأصوات المائعة هي التي يحدث عند نطقها أن يمر الهواء بمجرّاه دون احتكاك أو انحباس من أي نوع، إمّا لأن مجرّاه في الفم يتجنب المرور بنقطة السدّ أو التضييق، كما في صوت اللام. أو لأنّ التضييق غير ذي استقرار كما في صوت الراء، أو لأن الهواء لا يمر بالفم، وإنما يمر بالأنف كما في صوتي (الميم والنون) ويطلق على هذا النوع من الأصوات (الأصوات المتوسطة)، لأنها ليست بالشديدة ولا بالرخوة. وهذه الأصوات الأربعة تسمّى عند علماء الغرب بالأصوات الملائعة والسائلة.^(١)

وهذه الأصوات أحياناً تتعاقب في النطق عند العرب. فيقال: (الليل واللين) على البدل بين صوتي اللام والنون.^(٢) وأيضاً (رمقته ولمقته) أي إذا اتبعته ببصرك تتعهده وتنظر إليه وترقبه. فالتعاقب واضح بين صوتي الراء واللام.^(٣) وكذلك يقال: (الأحراش والأحناش) بمعنى هوام الأرض.^(٤) و(الوكر والوكن) للمكان الذي يلوذ فيه الطائر.^(٥) وقد وردت الصيغة الأخيرة في شعر امرئ القيس حينما وصف رحلة صيد قام بها، إذ قال:

وقد أغتدي والطيّر في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل^(٦)

ومن الملاحظ أن هذه الأنماط المذكورة تتراوح ما بين الاستعمال الواسع والاستعمال المحدود. ولقد عرضتها هنا لأبين ما ورد على نسقها في لهجة الحمر، فهم يقولون: "جيت مُمّبحين" أي منذ حين. قال الشاعر علي حمد ناير في حوار أجرّيته معه يصف رجلاً جواداً:

قدحك مُمّبحين في الفضاية مُبكر

نارك ديمة الغريب فيها محكّر

عشاك لضيف الهجعة فيه ما بتفكّر^(٧)

(١) المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص ٢٣.

(٢) لسان العرب: ج ١١، مرجع سابق، ص ٦٠٨. مادة "ليل".

(٣) الصحاح، ج ١٤، مرجع سابق، ص ١٥٥١.

(٤) لسان العرب، ج ٤، مرجع سابق، ص ١٩١. مادة "جشر".

(٥) المرجع نفسه، ج ٥، ص ٢٩٣. مادة "وكر، وكن".

(٦) الهاشمي، أحمد بن إبراهيم بن مصطفى: جواهر الأدب، ج ٢، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ص ٣٦.

(٧) مقابلة: حمد ناير، عذّ النهود الطوال، ١٢/٥/٢٠٠٦م.

فهذا الممدوح كاليم في عطائه وسخائه فقد وضع منذ حين وفي وقت مبكر مائدته في عرصة الدور التي دأب أهل الحي على الاجتماع فيها لتناول الطعام بُعيد أفول الشمس. وقد اعتاد الغرباء على ولوج منزله مهتدين بناره التي تظل متقدةً آناء الليل. وإذا قصد طارق عند الهجوع فإن طعامه معدٌّ لا يحتاج إلى تفكير أو تدبير.

والشاهد (مُبحين) والنطق الشائع في كردفان "منبحين". وأحتج أن ظاهرة تناوب إبدال النون ميماً أو العكس شائع في كلام العرب فلا غرابة إذا سمعنا أهل الحجاز يسمون الجان من الحيات "الأيم" وبنو تميم يقولون "الأين" ومن العرب من يقول "الغيم" و"الغين" أي السحاب. و"المدى والندى" بمعنى الغاية.^(١) والجدير بالذكر أن "منبحين" في لهجة أهل كردفان يعنون بها الظرف المكاني المركب "منذ حين".

وإذا أردنا أن نفسر إبدال الحمر وغيرهم للنون ميماً فلا بد أن نعقد مقارنة للصوتية بين الصوتين فالنون والميم وإن كانا غير متقاربين مخرجاً فهما متحدان في الصفة. فالنون مخرجه مما بين طرف اللسان وما فوق الثنايا.^(٢) ومخرج الميم مما بين الشفتين. ويشترك الصوتان في أن مجرى الهواء معهما دون سائر الحروف من الأنف.^(٣) ومن ثمَّ سهَّل التعاقب بينهما. وكلمة لعل ينطقها الحمر وأهل الريف من كردفان "نعل" وكثيراً ما نسمع تردادها في التحية لديهم في نحو: "إت طيب، طابن إيامك، نعل عيالك بخير" وقد وردت في "لعل" اثنتا عشرة لغة منها: لعل، لعن، رعل، رعن^(٤).

الحمري يقول: "الكلب ناص" إذا ولى مبتعداً وجلاً. وقد صدر منه صوت- مبدئياً قلقه ورعبه أو ربما يحدث هذا الصوت وهو يدور حول صاحبه الذي وفد من سفر ناءٍ ليعبر عما يهزه من شوق وأحياناً يطلقونها على إحداث هذا الصوت فقط وكلمة "مناص" المشتقة لا تخرج عن المعاني التي أتناولها في هذا المبحث وقد ورد في قوله تعالى: (كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِّنْ قَرْنٍ فَنَادَواْ وَلَآتَ حِينٍ مِّنَاصٍ)^(٥) أي لات مهرب. وبدو كردفان ورعاة الإبل خاصة كالحمر وغيرهم يستعمل بعضهم هذه الكلمة بالمعنى المذكور. فقد حدثني أحد الثقات بأنه رأى جمهرة

(١) ضاحي تميم: لغة تميم، مرجع سابق، ص ١١٣-١١٤.

(٢) ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١، مرجع سابق، ص ٥٢.

(٣) الكتاب لسيبويه، ج ٤، مرجع سابق، ص ٤٣٣.

(٤) الحسن بن قاسم المرادي (١٩٨٣م): الجني الداني في حروف المعاني، ت. فخر اتلدين قباوه وآخرين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ص ٥٨٢.

(٥) سورة ص، الآية ٣.

(٦) لسان العرب، ج ١٤، مرجع سابق، ص ٣٨٤. مادة "نوص".

من الصبية يلهون في العراء. وألفى أحدهم يرسم دائرة حول نملة وهو يحرك سبابته ليردّها لتلج داخل الدائرة كلما حاولت أن تتدّ عنها قائلاً: "ما ليك مناص ما ليك مناص"^(١).

وجذر الكلمة السابقة نطقته العرب باللام أيضاً. تقول العرب لاص عن الأمر وناص عنه إذا جاد عنه. وألاص الشئ وأناصه إذا حركه عن موضعه.^(٢) ومما ورد على هذا المنوال قولهم: صنّ اللحم وصلّى إذا أنتن.^(٣) والحرر يقولون صنّت أباطه، والمعنى هذا شائع عند أهل السودان قاطبة، فالصنّان لديهم ذفر الإبط.

وما ذكرته يُعدّ ضرباً من التغير التاريخي لبعض الكلمات في لهجة الحرر. ومن أمثله أيضاً- أي ما أبدل فيه اللام نوناً- عند الحرر وكثير من بداء السودان (عزرائين وجبرين وإسماعين وأحياناً سُماعين بحذف الهمز). وأحياناً نسمع من لحقه ضميم يدعو على غريمه قائلاً: "عزرائين يشيل روحك". وكان بنو تميم يقولون: "جبرئيل"^(٤) والهمز هو الأصل^(٥)، فهذه الكلمة علم أعجمي من الكلمة العبرية "جبرئيل" ومركب من جزئين بمعنى رجل الله.^(٦) والصيغة التميمية لهذا الاسم ورد على لسان جرير عندما كان يهجو الأخطل:

عبدوا الصليب وكذبوا بمحمدٍ وبجبرئيل وكذبوا ميكالاً^(٧)

ولغة قريش إبدال همزته ياءاً خالصة مع كسر جيمه فيقولون: "جبريل". وقد جاء ذلك في شعر ورقة بن نوفل:

وجبريل يأتيه وميكالٌ معهما من الله وحي يشرح الصدر مُنزل^(٨)

أما بنو أسد فينطقونه "جبرين".^(٩)

(١) مقابلة: الأستاذ دوليب محمود دوليب: قرية عيال بخيت، ١٠/١٢/٢٠٠٧م.

(٢) يعقوب بن سكين (١٦١٨م): الإبدال، ت. حسين محمد شرف الدين، القاهرة، ص ٦٨.

(٣) أمانة صالح الزعبي: التغير التاريخي للأصوات، دار الكتاب الثقافي، إربد، الأردن، ص ١٦٨. لسان العرب، ج ١٣، مرجع سابق، ص ٢٥٠، مادة "صنن".

(٤) لغة تميم، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٥) النخاس: إعراب القرآن، ج ١، القاهرة، ص ٢٥١. لهجة قريش، مرجع سابق، ص ٦٥.

(٦) لغة تميم، مرجع سابق، ص ١٣١.

(٧) جرير بن عطية الخطفي (١٩٦٤م): ديوان جرير، دار صادر، بيروت، لبنان، ص ٢٦١.

(٨) الطبري، محمد بن جرير: تفسير الطبري، ج ٢، ت. محمود محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، ص ٣٨٨-٣٨٩.

(٩) أبو حيان أنير الدين محمد بن يوسف (١٣٢٨هـ): البحر المحيط، ج ١، القاهرة، ص ٣١٨.

وقد ورد لفظ جبريل في القرآن في قوله تعالى: (قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)^(١) وقرأه على لغة قريش ابن كثير وابن محيسن ويوافقهما نافع وأبو عمرو وحفص وأبو جعفر ويعقوب واليزيدي وابن عامر، إلا أن ابن كثير وابن المحيسن يفتحان الجيم.^(٢) ومن قرأ على النهج التميمي "جبرئيل" حمزة والكسائي والأعشى وخلف والعلمي عن بكر.^(٣)

ونستخلص من العرض السابق أن الحمر وكثيراً من أهل الريف السوداني ينطقون بعض الكلمات كجبريل وما شابهها على نهج بني أسد. والصيغ "جبريل وعزرائيل وإسماعيل" تمثل بنى عميقة أي أصلية تشيع في الاستعمال اللغوي كما نلاحظ. أما الصيغ المقترنة بالنون منها، فإنها بنى سطحية كما نرى، لأنها ذات استعمال لهجي محدود. والجدير بالذكر أن التعليل الصوتي لتبادل النون واللام له ما يبرره، فهما متحdan صفةً، وكلاهما مجهور متوسط لا هو بالشديد ولا هو بالرخو، ومتقاربان في المخرج، فاللام من بين حافة اللسان وبين ما يليها من الحنك الأعلى. ومخرج النون ما بين طرف اللسان وما فوق الثنايا.^(٤) لكن مجرى الهواء يختلف مع كل منهما، فهو مع النون يتخذ مجراها مع الأنف ومع اللام يتخذ مجراه من الفم، ولقلب اللام نوناً ينتقل مخرج اللام إلى مخرج النون ويتخذ الهواء مجراه من الأنف.

المبحث الرابع: صوت الجيم

ينطق الحمر في غالب كلامهم صوت الجيم بلسان أهل الحجاز، وبذلك يطابق صوت الجيم في اللغة العربية الفصحى. أي صوت غاري مجهور منفتح وهو مزدوج "انفجاري فاشل" يجمع بين الشدة والرخاوة.^(٥) ووصف العلماء صوت الجيم الشجري هذا؛ بالصوت المركب أو المزجي.^(٦) والحمر ينطقونه بجلاء عند اتصال لام التعريف به خلافاً لكثير من العامة من

(١) سورة البقرة، الآية ٩٧

(٢) الدمياطي، أحمد بن محمد (١٣٥٩هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ج ١، القاهرة، ص ٤٠٨.

(٣) التيسير، مرجع سابق، ص ٧٥.

(٤) سر صناعة الإعراب، ج ١، مرجع سابق، ص ٥٢ و ٦٩.

(٥) المنخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

(٦) المرجع نفسه، ص ٤٨.

ناطقى العربية بالسودان، إذ يشيع اللحن بينهم في هذا الوضع. إذ يقولون على سبيل المثال: "أَجْمَل" أي يجعلونها شمسية.

لكن كثيراً ما تحدث على مرّ الزمن بعض التغيرات الصوتية في اللسان. وهذه التغيرات الصوتية تنقسم إلى قسمين كبيرين، أولهما التغيرات التاريخية والثاني التركيبية. والأخيرة هذه أي التركيبية هي التي تصيب الأصوات من جهة الصلات التي تربط هذه الأصوات بعضها ببعض في كلمة واحدة.^(١)

أما التغيرات التاريخية فهي تلك التغيرات التي تحدث من التحول في النظام الصوتي للغة بحيث يصير الصوت اللغوي في جميع سياقاته صوتاً آخر. ومن التغيرات الصوتية التاريخية في لهجة الحمر ما طرأ على صوت الجيم في بعض الكلمات، إذ ينحون منحى أهل صعيد مصر في نطق الجيم دالاً، فيقولون فيما لم يسحق جيداً من الحنطة أو الذرة "دشيش ودشيشة" وهي تطلق أيضاً على كل حبّ مجروش أو كل طعام قوامه غلّة مرضوضة. وكذا تنطق الجيم-كما ذكرت آنفاً- في بعض بقاع الصعيد المصري، فيقولون: "دمل وداموسة" في "جمل وجاموسة" وغير ذلك. وقد سمعتُ النطق على هذا النسق ممن عاشرتهم إبان هجرتي من سكان صعيد مصر.

وقلب الجيم دالاً لا يقتصر على لهجة الحمر لوحدها بل نجده عند كثير من قبائل السودان، فيقولون: "الدش" يريدون "الجيش". وتعليل ذلك في نظري- مطابق لما لاحظته علماء اللغة المحدثون من أنّ أصوات أقصى الحنك، الجيم والقاف والكاف، تميل بمخرجها إلى نظائرها من الأصوات الأمامية. ومن أمثال الحمر السائرة: "العندو دشع ما بلقى فزع" والمعنى عينه طرقة زهير بن أبي سلمى حيث قال:

وَمَنْ يَكْ ذَا فَضْلٍ فَيُخَلِّ بِفَضْلِهِ

على قومه يُسْتَغْنَى عَنْهُ وَيُذَمُّ

(١) رمضان عبد التواب: التطور اللغوي، مرجع سابق، ص ٣٤-٣٥.

وهم يعنون بذلك أيضاً أنّ ذا الجشع والطمع لا يلقى مَنْ يُوَازِرُه إذا أثخنه كلوم النوائب.^(٢) وفي اللهجة العاميّة المغربيّة ما يطابق ذلك النطق، إذ يقولون: "الذّائر" بدلاً عن الجزائر.^(٣)

وإذا تتبعنا هذا التغيير في قلب الجيم دالاً نجده يعزى إلى انحلال الجيم العربية الفصيحة إلى عنصريها الدال والشين.^(١) ومثال لذلك مارواه ابن هشام اللّخمي- المتوفى سنة ٥٧٧هـ- بأنّ بعض الناس في عصره يقولون: "تدشيت" في "تجشأت".^(٢)

والعنصر الثاني هو الشين الأصلية في العربيّة، تلك الشين التي ضاع منها الجهر فصارت مهموسة والتي ينطقها بنو تميم، إذ قال شاعرهم زهير بن ذؤيب العدويّ:

فيا لتميم صابروا قد أشنتم إليه وكونوا كالمحرّبة البُسْل

وقد وردت في قريض الأخطل:

ستقذف وائل حولي جميعاً وأطعن إن أُشِنْتُ إلى الطعان

ومن هذا القبيل ما أورده أبو عمر الشيباني بأنّه مع من يقول: "الإشاعة" يعني الاضطرار وأهل الحجاز يقولون: "الإجاءة". يقال ما أجاءك إلى كذا وكذا؟ أي ما اضطرك إليه؟.^(٣) قال الله عز وجل: (فَاجْأَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْسِيًّا).^(٤)

مما سبق نلاحظ تطور الجيم الصوتي المذكور مماثل لقولنا في العاميّة أحياناً: "أغسل وشك" فقاربت بذلك الجيم الشامية المعطشة.

وخلاصة القول أنّ الدال أيسر في الأداء من الجيم في النماذج التي ذكرتها سابقاً. لذا أثرها الحمريّ ومنّ نحا نحوه على المستوى اللهجيّ. والأدل على ذلك ما نلاحظه في الكلمات التي

^(٢) الزوزني: شرح المعلقات السبع للزوزني، القاهرة، ص ١١٩. وزهير بن أبي سلمى: ديوان زهير، ط ١، دار الكتب العلمية، القاهرة، مصر، ١٩٤٤م.

^(٣) التطور اللغويّ، مرجع سابق، ص ٢٦.

^(١) التطور اللغويّ، مرجع سابق، ص ٢٦.

^(٢) المرجع نفسه، ص ٢٦.

^(٣) أبو عمر الشيباني: الجيم، ج ١، دار العلم للملايين، بيروت، ص ٧٠. الأخطل (١٩٩٩م): ديوان الأخطل، ط ١، دار صادر، بيروت، ص ٢٨١.

^(٤) سورة مريم، الآية ٢٣.

تشتمل على الجيم. إذ ينطقها الطفل الغرير -الذي لم يستقم لسانه- دالاً. فيقول: "يوم الدُّمعة"
بدلاً من الجمعة.

المبحث الخامس: صوت القاف

لقد عدّ قدماء اللّغويين القاف من الأصوات المجهورة وهو حرف لهويّ شديد مستعلٍ.^(١) وينطقه مجيدو القراءات لهوياً شديداً مجهوراً.^(٢) غير أن هنالك تغييرات تاريخية كثيرة طرأت على نطق القاف في لهجة الحمر. ومن تلك التّغييرات في لهجة الحمر وعامة أهل السّودان مانسمعه من تأدية أقصى حنكية منفتحة مجهورة كما في بادئة الكلمة الإنجليزية (Go). ومثال لذلك قول شاعرهم:

الكوراك ضرب وحرّت القايلة والفرع مرق إلاّ ابنيفساً خايبة

أي ارتفع "الكوراك" وهو صوت استغاثة متعارف عليه في الحي عند حلول الكوارث كالنهب والحرائق وغيرها، ليهبّ النّاس لبذل العون.

وعندما سمع القوم هذا النداء هرعوا لنجدة الملهوف في حمّارة الغيظ، ولم يتراخ إلاّ الهياّبة النكس. والشاهد في البيت السابق كلمتا "القايلة" و"مرق" وهذا النطق شائع عند بني تميم من سالف العصور، وتعرف بالقاف التميمية ويسمّيها السّيرافي القاف المعقودة. وقد وصفها ابن دريد قائلاً: فأما بنو تميم فإنهم يلحقون القاف بالكاف فتغلّظ جداً فيقولون: "الگوم" يريدون "القوم". فتكون القاف بين القاف والكاف، وهذه لغة معروفة في بني تميم. وقد أشبهت الكاف الفارسية نطقاً. قال أبو الأسود الدؤلي:

ولا أگول لگدر الگوم گد نضجت

ولا أگول لباب الدار مگفول

ونُسب البيت السابق لحاتم الطّائي.^(٣)

والقاف التميمية هذه كانت شائعة من القرن السابع والثامن من الهجرة، أيام أبي حيّان وابن خلدون. يقول أبو حيّان: "وهي الآن غالبية في لسان أهل البوادي من العرب حتى لا يكاد عربي ينطق إلاّ بالقاف المعقودة لا بالقاف الخالصة الموصوفة في كتب النحويين، والمنقولة على وصفها الخالص على ألسنة أهل الأداء من أهل القرآن".

(١) الفونولوجيا والصوتيات، مرجع سابق، ص ١٢١.

(٢) المنخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص ٥٤.

(٣) لغة تميم، مرجع سابق، ص ١٠١.

وما زالت هذه الصورة هي السائدة في معظم أنحاء الجزيرة العربية وكثير من الدول العربية. والحر كغيرهم من ناطقي العربية في السودان إذ ينطقون القاف غيناً في كلمات مخصوصة، مثل قاسم ويوم القيامة فيقولون: غاسم ويوم الغيامة ويعدّ هذا نوعاً من تطرف القاف.

ومن أمثله في كلام العرب أقلف وأغلف، أي لم يختن. ويقولون في رذال الناس الذين لا خير فيهم: "القمز والغمز".^(١)

وقلب القاف غيناً له ما يبرره صوتياً. فالصوتان متجاوران مخرجاً. فالغين يرى سيبويه أنها من أدنى الحلق جهة الفم. والقاف من المخرج الذي يليه وهو أقصى الحلق وما فوقه من الحنك الأعلى وأنهما يتفقان في الجهر إلا أن الغين رخوة والقاف شديدة.^(٢) ونلاحظ أن تطور الصوت يكون بتغيير مخرجه وذلك بانتقال الصوت إلى الورا أو إلى الأمام باحثاً الصوت في انتقاله عن أقرب الأصوات شبيهاً به. وهذا ما حدث -كما أسلفت- عن قلب القاف غيناً. وبناءً على ذلك أستطيع أن أعوّل في تفسير ما حدث على رأي فريق من علماء اللغة يرى بأن القبائل التي تنطق على هذا المنوال إنما تعود بمخرج القاف إلى الورا قليلاً.^(٣)

والحر ينطقون القاف كافاً في بعض المفردات فيقولون في قتل: "كتل"، ويجاريهم في ذلك كثير من أهل السودان، وفي قنار - أي رائحة الشواء - "كنار" ويمكن أن نفسر هذا التناوب لتقارب مخارج أصوات حروف أقصى الحنك وهذا النمط النطقي جرى على ألسنة العرب من قديم الزمان، إذ روي عن العرب قولهم: التزحلق والتزحلك. وهو جلوس الصبي على رأس أرض منحدرية ثم يندفع على قفاه.^(٤) ويعضد ما ذكرته سابقاً أن قريشاً تقول كشطت عنه الجلد.^(٥) وتقول تميم وأسد وقيس قشطته، وفي قوله تعالى: (وَإِذَا السَّمَاءُ كَشَطَتْ)^(٦). قرأ ابن مسعود: "قشطت" بل ومن العرب من يقول: "الكمح" لغةً في "القمح".^(٧)

يذكرني هذا الضرب من الاستعمال بقصة طريفة رواها الأصمعي عن رجل وجد خارجاً من الصحراء كأنه جذع محترق، قال: فقلت له: أتقرأ شيئاً من كتاب الله؟ قال: لا. قلت: فأعلمك؟

(١) الإبدال لأبي الطيب، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩.

(٢) لغة تميم، مرجع سابق، ص ١٠٦.

(٣) الإبدال، لأبي الطيب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٢٨-٣٢٩. المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٤) لسان العرب، مرجع سابق، ج ١٠، ص ٤٣٥ مادة زحلك. العين، مرجع سابق، ج ٣، ص ٣٣٣ مادة "زحلق".

(٥) الإبدال، يعقوب بن سكيك، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٦) سورة التكويد، الآية ١١. د. عبد اللطيف الخطيب (د ت): معجم القراءات، ط ١، دار سعد الدين، دمشق، سوريا، ص ٣٢٦.

(٧) لغة تميم، مرجع سابق، ص ١١١.

قال: ما شئت، قلت: إقرأ: (قل يا أيها الكافرون). قال: (كل يا أيها الكافرون). قال: قل كما أقل. قال: "ما أجد لسانى ينطق بذلك".^(١) وخلاصة القول، فإن ما سلف ذكره فهو الصورة اللهجية لنطق القاف عند الحمر. ويلاحظ أن "قاف القراء" الفصيحة لم تكن من بينها، تلك القاف التي وصفت بأنها صوت شديد مجهور مخرجها من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى، فهي والكاف من حيز واحد إلا أنها أدخل في الفم.^(٢)

المبحث السادس: أنماط من التماثل

التماثل التبادلي:

هو أن يتأثر صوت سابق بصوتٍ تالٍ "وهو تماثل تخلفي" ثم يتأثر الصوت التالي بالصوت السابق "وهذا تماثل إتباعي". وقد يكون التماثل بالعكس أي إتباعي ثم تخلفي ويطلق على هاتين العمليتين تماثل تبادلي.^(٣) ولا حظت ورود النوع الأول -أي المكون من تماثل تخلفي ثم إتباعي- في لغة قبيلة الحمر، وكذلك قبائل الأباله التي تجاورهم في البيئة مثل المعاليا والبزعة ودار حامد وبني تميم كانوا ينطقون بعض الألفاظ على تلك الشاكلة فيقولون في أعهد: "أحد".^(٤) وقد ورد هذا اللفظ في قوله تعالى: (ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين)^(٥) فنطقته تميم "أحد".^(٦) وتم ذلك بأن قلبت العين حاءً وهما من مخرج واحد وهو الحلق بسبب مجاورة الهاء التي تتفق معها في الهمس والرخاوة فصارت "أحد" وهذا تماثل تخلفي جزئي متصل، فاجتمع صوتان متفقان صفةً ومتجاوران مخرجاً هما الحاء والهاء، ثم انتقل مخرج الثاني إلى مخرج الأول فاجتمع صوتان من جنس "أحد" أولهما ساكن والثاني متحرك فأدغما وهذا تماثل كلي إتباعي متصل.^(٧)

ومن العبارات الشائعة عند الحمر قولهم: "فلان ناqqه باحًا بسعر غالي" وذلك عندما يؤمون السوق ويتجاذبون أطراف الحديث عمّا جرى فيه من أحداث تجارية تختصّ بالبيع والشراء، وبالنظر للعبارة السابقة نستنبط أن الحمر ينطقون على نسق بني تميم الذي سبق تفصيله. وقد

(١) ابن عبد ربه الأندلسي (١٩٤٥م): العقد الفريد، ج٣، ط١، ت. محمد سعيد العريان، دار الاستقامة، القاهرة، ص٤٧٦.

(٢) الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٣) لغة تميم، مرجع سابق، ص١٥٩.

(٤) المرجع نفسه، ص١٥٩.

(٥) سورة يس، الآية ٦٠.

(٦) الحسين بن أحمد بن خالويه (١٩٣٤): مختصر في شواذ القرآن، القاهرة، ص١٢٠٥.

(٧) الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج٤، ص٤٣٣.

أشار سيبويه إلى ذلك في كتابه إذ قال: (قول بني تميم "مَحَمُّ"، ويريدون معهم)،^(١) قال ابن منظور: (غلبت الحاء على العين في لغة سعد فيقولون: "كنت مَحَمَّ في مَعهم) وبنو سعد بطن من تميم.^(٢) وإذا أمعنا النظر في لفظ "باحًا" الحمريّة و"مَحَمَّ" التميميّة فإننا نلاحظ أن كل لفظ مركب من كلمتين. فاللفظ الأول يتألف من "باع" والضمير "ها" واللفظ الثاني يتكون من "مع" والضمير "هم" فقلبت العين حاءً في اللفظين بتأثير الهاء فصارا "باحها" و"مَحَهْ" ثم قلبت الهاء حاءً بتأثير الحاء. فأصبحت "باحا" و"مَحَمَّ" وتم إدغام الحاء في كل اللفظين، فكانت الصورة النهائية للكلمتين "باحًا" و"مَحَمَّ". والمرحلة الأولى تماثل جزئي تخلفي منفصل، والثانية تماثل كلي إتباعي منفصل. وهكذا أدغمت الحاء في الحاء. ومما يجدر ذكره بأن هذه اللغة قد سمعتها على لسان بعض العشائر اليمنية في مناطق قبائل همدان عند تخوم اليمن مع البلاد السعودية حيث أقمت ربحاً من الزمن في تلك البقاع.

التمائل الكلي الإتباعي المتصل:

عند إسناد الفعل الذي لامه طاء إلي تاء الفاعل يقول الحمر والعديد من المتكلمين العربية السودانية على سبيل المثال "خَبِطُ السراق يا محمد؟" و"رَبِطُ الحصان يا محمود؟" على سبيل استفهام التنغيم. وينطقها أيضاً كثير من الحمر والأبالة بكردفان على سياق آخر يوافق نهج قبائل الأردن وفلسطين فيقولون: "خَبِطُ وِرَبِطُ" وقد يظهر بعضهم تاء الفاعل بنطق يقارب الطاء. وأصل تركيب الفعل مسنداً إليه تاء الفاعل للمخاطب "خَبِطْتَ" بإسكان لام الفعل. ثم تأثرت التاء بالطاء فقلبت إلى صوت مماثل فأصبحت "خَبِطُ" فاجتمع صوتان ساكنان من جنس واحد سكن أولهما فأدغم في الثاني فأصبح "خَبِطُ". وهذا نوع من التماثل الكلي الإتباعي المتصل ومثله قولهم "خَبِطُ" إلا أنها لم تدغم وأنشد وفق هذه اللغة علقمة بن عبدة في قوله:

وفي كُلِّ حَيٍّ قد خَبِطُ بنعمةٍ فحُقَّ لشأسٍ من نذاك ذَنُوبُ^(١)

وعقب سيبويه على هذا الضرب من التماثل المذكور بقوله: "وأعربُ اللغتين وأجودهما ألا تقلبها طاء، لأنّ هذه التاء علامة إضمار، إنما تجي لمعنى ليست تلزم هذه التاء الفعل".^(٢)

(١) الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٥٠.

(٢) لسان العرب، مرجع سابق، ج ٢، ص ٣٤٤. مادة "سنت"

(١) أبو محمد عبد الله بن سلم بن قتيبة (٩٠٢م): الشعر والشعراء ليون، ص ١١.

(٢) الكتاب، لسيبويه، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٧٢.

خلاصة القول أنّ المسوّغ لإبدال التاء طاءً أنهما من مخرج واحد وهو أصول الثنايا العليا، فالعرب تقول: هذا رجل طبق وتبق أي فطن.^(٣) ومن أمثلة التماثل الكلّي الإتباعي المتصل عند الحمر استعمالهم للفعلين: اذهن واصبر في نحو قولهم: "المريض اذهن بزيت الخروج"، و"وفلان اصبر على المصيبة". الكلمة الأولى أصلها: "ادتهن" كافتقد، ولكن تأثر فاء الكلمة بتاء الافتعال فقلبت دالاً وذلك لتقارب مخرجيهما، فكلا الحرفين اسنانيّ مجهور منفتح. أما كلمة "اصبر" هي في الأصل اصتبر، بيد أن الصاد أثرت في تاء الفاعل فانقلبت حرفاً من جنسها وذلك لأنّ الحرفين يشتركان في المخرج إذ أنّ كليهما أسنانيّ لثويّ.^(٤) ومثيل ذلك اضجع وأذكر وهما حسب الأصل اضجع إذتكر ومما تلزم الإشارة له أنّ العرب تقول في اصتبر "اصطبر" كما في قوله تعالى: (وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ۖ

نَحْنُ نَرْزُقُكَ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى)^(٥) وذلك لأنّ من معايير العرب الفونولوجية أنّ التاء تصير طاء إذا اتصل بها حرف من حروف الإطباق وهذا "تماثل جزئي تخلفي متصل".^(٦)

التماثل الكلّي التخلفي المتصل:

ينطق الحمر لفظي "حج وشجرة" بخفض فاء الكلمة ويجاريهم في ذلك بعض متحدثي العربية في السودان وبنظرة استقراء فاحصة للقراءات القرآنية يمكن أن نتحقق من نطق ألسنة العرب لهذين اللفظين. وفي قوله تعالى: (وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا)^(٧) قرأ بالكسر لكلمة (حجّ) كل من حفص وحمزة والكسائي^(٨) وأبو جعفر وخلف^(٩) والأعمش والحسن. وقرأ بقية الأربعة عشر بالفتح. وقد وردت هذه الكلمة في

القرآت العشر مرات والآيات الأخرى سوى الموضع المذكور سابقاً قرئت كلها بالفتح ولم يقرأ بالكسر سوى الحسن.^(١٠) وقد علّق على ذلك اللّغوي يونس حسين قال: "الحجاز الحَجّ وتميم

(٣) الإبدال، لأبي الطيب، مرجع سابق، ج ١، ص ١٢٦.

(٤) المدخل إلى علم اللغة، مرجع سابق، ص ٤٦-٤٧.

(٥) سورة طه، الآية ١٣٢.

(٦) الصوتيات والفونولوجيا، مرجع سابق، ص ١١٣.

(٧) سورة آل عمران، الآية ٩٧.

(٨) التيسير، مرجع سابق، ص ٩٠.

(٩) تحبير التيسير، مرجع سابق، ص ٩٨.

(١٠) محمد فؤاد عبد الباقي (١٩٨٦م): معجم ألفاظ القرآن، ج ١، دار الفكر، القاهرة، ص ٢٤٨.

الحجّ".^(٢) ويعضد رأيه النحاس فهو يعقب على قوله تعالى: (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ)^(٣) بأنّ الفتح لأهل الحجاز والكسر لأهل نجد.^(٤) وذكر صاحب الإتحاف بأنّ الكسر نسب لنجد والفتح للحجاز وأهل العالية وأسد.^(٥) أمّا لفظ شجرة فقد تكرر في القرآن الكريم ومنه قوله تعالى: (إِنَّ شَجَرَتَ الزَّقُّومِ (٤٣) طَعَامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ).^(٦)

نخلص ممّا سبق أن الحمر ينطقون هذين اللفظين "الحج والشجرة" وفق أهل نجد كبني تميم وأسد. وهنالك تفسير بيّن لهذه الظاهرة عند التميميين، فهم يقلبون كل جيم ياء في كثير من الكلمات. وقد سمعتُ هذه اللغة في مواطنهم الحالية في شرق السعودية والكويت. لذا كسرت فاء الكلمة في لفظي "حج وشجرة" بسبب مجاورة الياء إذ تأثرت بها وهذا تماثل كليّ تخلفيّ متصل. واستنبط من هذا بأن القبائل الجهنية التي ينتسب إليها الحمر ربما كانت تقطن في بقاع تتاخم ديار القبائل التميمية.

المبحث السابع: النّبر

النّبر في اللغة هو الطعن بشدة ثم نزع الرمح بشدة، وكلّه بسرعة. ومن ثمّ أطلق على النّطق بصوت مرتفع تظهر معه الحروف مسموعة.^(٧) والنّبر في الكلام خلاف الجمجمة أي عدم إبانة الكلام^(٨)، ويقال قديماً إذا مر بك اسم الأمير وأنت تقرأ فاقراً بنبر حتى يسمعه الناس وتقول العرب: نبرت الشئ أنبره نبراً، أي رفعته وتلاحظ أنّ المنبر سمي كذلك لارتفاعه.

(٢) عبد الرحمن جلال الدين السيوطي (١٩٨٦م): المظهر، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٢٩٨ ب.

(٣) سورة البقرة، الآية ١٨٩.

(٤) إعراب القرآن للنحاس، ج ١، ص ٢٠.

(٥) إتحاف، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٦) سورة الدخان، الآيات ٤٣، ٤٤، ٤٥.

(٧) لسان العرب، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٨٩، مادة "نبر".

(٨) القاموس المحيط: مرجع سابق، ج ٤، ص ٩٢، مادة "جمم".

ونبرة المغنى: رفع صوته عن خفض. وتقول العرب: نبر الغلام إذا ترعرع^(٩) ويقول صاحب اللسان: نبر الحرف همزه. وقال رجل للنبي - صلى الله عليه وسلم: يا نبي الله، فقال لا تنبر باسمي أى لا تهمزه. ورجل نبار قيل فصيح بليغ.^(١)

وقال اللحياني: رجل صيّا. ويقول ابن الأنباري النّبر عند العرب ارتفاع الصوت يقال نبر الرجل نبرة إذا تكلم بكلمة فيها علو وأنشد:

إني لأسمع نبرة من قولها

فأكاد أن يغشى على سرورا^(٢)

عندما يعبر الإنسان عما يكتنه في أحنائه بلغة أو لهجة ، فإنه يميل إلى الضغط على مقطعي خاص من كلمة ليجعله بارزاً وواضحاً في السّمع مما عداه من المقاطع . وهذا الضغط هو الذى يسميه المحدثون من اللّغويين "بالنّبر" وهو ارتكاز على الصوت وفي اللّغة الإنجليزيّة يُعبر عنه بلفظ stress (Accent) ويعرّفه الدكتور تمام بأنه: "وضوح نسبيّ لصوت المقطع، إذا قُورن ببقية الأصوات والمقاطع في الكلام"^(٣) ويفصّل الدكتور بشر في ذلك إذ يقول: "معنى هذا أنّ المقاطع تتفاوت فيما بينها في النطق قوةً وضعفاً، فالصوت "أو المقطع المنبور، ينطق ببذل طاقة أكثر نسبياً ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أشد^(٤). وعلى الرغم من أنّ قُدامى اللغويون العرب لم يدرسوا النّبر بمعنى الضغط على بعض مقاطع الكلام، فإنّ بعضهم قد لاحظ أثره في تطويل بعض حركات الكلمة، ويسميه ابن جني "مطل الحروف". فيقول مثلاً : "وحكى الفراء عنهم": أكلت لحماً شاة، أراد بذلك لحم شاة، فمطل الفتحة، فأنشأ عنها ألفاً واستدلّ بما أنشده على بن هرمة في رثاء ابنه^(٥):

فأنت من الغوائل حين تُرمى

ومن ذمّ الرجال بِمُنْتزاح

أراد منتزح أى نازح .

(٩) الهادي إلى لغة العرب، مرجع سابق، ج ٤، ص ٢٤٦. مادة "نبر" ولسان العرب، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٨٩، مادة "نبر".

(١) لسان العرب: مرجع سابق، ج ١٤، ص ١٧٥.

(٢) لسان العرب: مرجع سابق، ج ١٤، ص ١٧٥.

(٣) حسان تمام (١٩٥٥): مناهج البحث في اللغة، القاهرة، ص ١٦٠.

(٤) علم اللغة العام: مرجع سابق، ص ٢١٠.

(٥) ابن جني (٢٠٠١م): الخصائص، ج ٣، ت. عبد العزيز هنداي، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ١٢٣.

وإذا أمعنا النظر في لهجتنا العامية السودانية فإننا نلاحظ ما يشابه هذا النطق، فقد يتباهى الرجل أحياناً ببكوره وفرط نشاطه وتوفير المؤن لأهله فيمطل ويمد قائلًا: "اشتريت اللحم والخضار إلخ". بل والمطل الذي ذكره أبو الفتح ابن جني يبدو واضحاً في نطق بعض القبائل السودانية. ففي الغرب الأقصى من البلاد سمعت من يقول: جيتا في جيت بالتسهيل وأصلها جئت. والجدير بالذكر أن سكان شهارة والأهنوم باليمن ينطقونها على تلك الشاكلة^(١). وكذلك قبائل البقارة عامة تقول "متا" بالمطل في (متى).

وتغيير موضع النبر في الكلام أو بعبارة أخرى "انتقال النبر" يؤثر في صيغ الكلمات، وسقوط بعض أصوات الكلمة، أو طول الحركات وما إلى ذلك. ومن هنا نشأ التباين في أداء الصيغ الكلامية للغة أعنى الأصوات المنطوقة في اللغة الواحدة. فالنطق المصري لكلمة "مدرسة" مثلاً يكون بالضغظ على المقطع الثاني وغيرهم يضغطون على المقطع الأول. ومن هنا يظهر لنا مدى الاختلاف في اللهجات .

أما في اللهجة الحمر فإننا نلاحظ النبر واضحاً في كثير من الكلمات التي يلحقها ياء النسب، مثل قولهم: الحمري، نسبة إلى قبيلة الحمر. وإذا دققنا فيها صوتياً نجد أنها تنطق على هذا النحو: ألح مري. إذ أن المقطع الأول المنبور، أدى إلى سقوط حركة المقطع الثاني في الكلام، مع ملاحظة أن المقطع الأخير تكون فيه الراء مرققة ودون تركيز على ياء النسب. وظاهرة سقوط الحركات إذا سبقها مقطع منبور، شائعة في اللغة العربية. فيقال مثلاً "وهو" في "هو" و(معه) بدلاً من (معه) . ويمكن ملاحظة ذلك في سقوط حركة لام الأمر الداخلة على الفعل المضارع، عند اتصالها بالفاء أو الواو. بل لم ترد على الصورة الأصلية في القراءات القرآنية، يقول ابن خالوية: "فلو قرأ قارئ" فليُنظر الإنسان مم خلق" بكسر اللام لكان سائغاً في العربية غير أنه لا يُقرأ به، إذ لم يتقدم له إمام، والقراءة سُنّة يأخذها آخر عن أول، ولا تُحمل على قياس العربية"^(٢).

ونطق الحمر عينه- والذي وصفته سابقاً- ألفتيه لدى القبائل المتبديّة في نجد والحجاز كالدواسر والعنوز والبقوم وزهران وشهران ويام وغيرهم من قطّان تلك البقاع. فيقولون في الكلمات المنسوبة ذات المقاطع القصيرة- على سبيل المثال: العنزى (ألح نزي) نسبة إلى

(١) أحمد حسين شرف الدين (١٩٧٠): لهجات اليمن قديماً وحديثاً، مطبعة الجبلوي، القاهرة، ص ٥٧.

(٢) الحسين بن أحمد بن خالويه (١٩٤١م): إعراب ثلاثين سورة من القرآن الكريم، ت. عبد العزيز الميمني، القاهرة، ص ٤٢.

قبيلة عنزة في نجد. والبقي (الب قمي) نسبة إلى قبيلة البقوم. في ناحية تربة بالبلاد السعودية. والسَّهلي (أَسْهلي) نسبة إلى بني سهل بإقليم جازان على الحدود اليمنية.

إضافة إلى ذلك هنالك سمات نطقية عديدة سمعتها من بداء الجزيرة العربية الذين ذكرتهم آنفاً، تماثل تماماً ما حوته لهجة الحمر والأبالة عامةً "أعنى رعاة الإبل" بغرب السودان. من ذلك نطقهم لبعض الكلمات مثل النَّعْجة إذ يقولون: (أُنْ عجا) دون تركيز على الحرف الأول الأصلي من الكلمة بل وإن كان مشدداً فتخفف الشدة بحيث تبدو في نطقهم كأنها سكون. وهذا المعيار ينطبق على الحرف الأخير إذ ينطق دون تركيز. ومما ورد على ألسنة الحمر وبدو جزيرة العرب على النَّسق الذي فصلته سابقاً قولهم في البقرة: (الب بقرا) مع مراعاة نطق القاف كافاً فارسية لدى الجميع بيد أن الحمر يرققون الراء، وأيضاً عبارة (مافى عوجة)

(ما/فَع/ وِجا) يريدون بذلك أنهم في أمن وسلام ولم يطرأ مايكدر صفو حياتهم. وكذلك قولهم: الحُمرة (الحُ مرة) بالترقيق عند الحمر. وسمعتُ بعض أهل الديار العربية السعودية وأهل اليمن – الذين عاشرتهم زهاء عقدين من الزمان. يعنون بها شجرة العرديب الوريقة. أمّا الحمر فيطلقونها على دوحة التبلدى، واسم الجمع عند الفريقين (حُمَر) وأهل جزيرة العرب يَفْخُ مَوْن الراء وبدو قبيلة الحمر يرققونها.

وعند اتصال الياء- ضمير الجر للمتكلّم بالاسم، فإنّه يُنطق عند الحمر والقبائل النجدية والحجازية على صورة واحدة، إذ يقال مثلاً: جملى سريع (إج / ملى). فكأن الحرف الأول ساكن لديهم مع تفادى الضغط على الضمير في آخر الكلمة وهذا ينطبق على نطقهم لبعض الظروف مثل : فوقى وقدامى . ومما جاء على هذا السياق .

شدو خريدة حمريه بمقطع من أهازيج رقصة الجراري:

القمرية بتقوى

في الفرع البفوقى

الجرارى الخاجوقى

نسانى نشيل توبى^(١)

(١) مقابلة: عثمان محمد نعمان من قرية الدودية – شرق بلدة الخوي ١٢/٤/٢٠٠٧م

فهذه الفتاة تصف يمامة تهدل على فنن بالقرب منها وقد أثارت أشجانها وبُعِيد ذلك ببرهة سرى إلى سمعها نغمات حماسية لأغاني الجراري (وهذا ماتعنيه بالخاجوقي) فى ناحية ما

من الحى فطار صوابها واندفعت فى لهفة لتشارك أترابها. وعندما دلفت إلى باب الدار أدركت أنها نسيت ثوبها فكرت آيةً لتأخذه . والشاهد نجده فى كلمتى "فوقى" و "توبى" وإذا قسنا على كلمة "توبى" كمثال نجد نطق الضمير عند الحمر والأباله بالسودان وبدو جزيرة العرب يطابق لفظ (be) الإنجليزية دون ارتكاز غير أن كثيراً من القبائل السودانية ذات اللسان العربى يطابق نطقها لهذا الضمير كلمة (be) الإنجليزية.

ومن أمثلة تقصير الحركات بتأثير انتقال النبر فى لهجة الحمر وكثير من متحدثى العربية بالسودان قولهم فى نحو: (مَجِيت مالك؟)، و(مَلَقِيت التاجر؟)، و(مَعْنَدك خبر بالحاصل؟) يريدون ماجئت وما لقيت وما عندك. فانتقل النبر من "ما" الاستفهامية إلى ما بعدها من الكلمات وهذه لغة قوم من كنانة^(١).

(١) شواهد التوضيح ، لمشكلات الجامع الصحيح ، لابن مالك، ص ٢١٥،

المبحث الثامن: الإمالة

الإمالة لغة مشتقة من الميل إلى الشيء والإقبال عليه. ومال الشيء يميل ميلاً وممالاً ومَمِيلاً وتميلاً وأنشد ابن الأعرابي: ^(١)

لَمَّا رَأَيْتُ أَنْنَى رَاعِي مَالٍ حَلَقْتُ رَأْسِي وَتَرَكْتُ التَّمَايِلَ

وجاء في الحديث عن أبي هريرة _ رضى الله عنه _ عن النبي _ صلى الله عليه وسلم _ قال: "صنفان من الناس من أهل النار لم أرهما بعد، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون الناس بها، ونساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة، لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها" ^(٢)

يعنى يملن بالخيلاء ويصبن قلوب الرجال، وقيل مائلات متبرجات متبخرات فى المشى مميلات لأكتافهن، وأعطافهن فتميل رؤوس الناس نحوهن.

أما الإمالة اصطلاحاً، فهى أن تميل الألف نحو الياء والفتحة نحو الكسرة مثل: عابد. ^(٣)

وإنما تمال الألف لياء أو كسرة تكون بعدها وتكون منقلبة عن ياء وتكون مشتبهة بما انقلبت من ياء فما أميل للياء قولهم: شيبان عيلان، ومما أميل لكسرة بكسرة: عالم وخاتم ومساجد ومفاتيح. وماكان منقلباً عن ياء نحو قولك: طاب خبرك. ومن أجل الياء أيضاً إمالتهم الكافرين وما أشبهه ^(٤).

وبعد هذا الاستيفاء المقتضب لمفهوم الإمالة انتقل لاستقصاء مظاهر الإمالة فى لهجة الحمر. تُعدُّ قبيلة الحمر مُقلّة فى الإمالة. وفى واقع الأمر أنّ سائر الأباله بغرب السودان لا ينحون إلى الإمالة ما خلا الكبابيش. وتعليل ذلك- فى اعتقادى- بأنهم (أى الكبابيش) قد تأثروا بقبائل الشايقية والمناصير والبيديرية- تلك القبائل المميلة- والتي تقطن فى شمال البلاد حيث تتاخم ديارهم، أرض الكبابيش صوب الجنوب ومن نماذج الإمالة لديهم ما أنشدته عادة فى وداع مَنْ أولعت به داعية له بالعود الحميد وملتمة منه ألا يبدى الجفاء أو ينكث بعهدة معها ^(٥):

(١) لسان العرب: ج ١٤، مرجع سابق، ص ١٥٩، مادة "ميل".

(٢) ابن ماجه (١٤٠٠هـ): سنن ابن ماجه، ط ٣، دار المعرفة،

(٣) ابن هشام الأنصاري: شرح جمل الزجاجي، المكتبة العصرية، بيروت، ص ٤٣٥.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٣٥.

(٥) حسن نجيلة: ذكرياتي في البادية، دار القلم، بيروت، ص ٤٥.

سَرْجَة عَلَى مَقَافِي *

وَدَّعْتَهُ فِي الْعَافِي *

يَا تَوْمَى مَا تَجَافِي *

وَعَدَى الْمَعَاكَ صَافِي *

وشاهد الإمالة في هذه الأرجوزة في " العافى " بدلاً عن العافية* .

وكما أسلفت فإنَّ الإمالة عند الحمر تنحصر في ألفاظ قليلة ومثال ذلك "أبو رَخي" علّم لرجل. وأصل هذه الكنية "ذو الرخاء" وكذلك كلمة ماء يقولون فيها بالتذكير "مي"، وتطابق تماماً الكلمة الإنجليزية May في النطق. بيد أنَّهم عند تعريفها ينطقونها. بإمالة كبرى فيقولون "ألـمي*" وتطابق في النَّطق لاحقة لفظة "mee الإنجليزية خلافاً لجيرانهم وأبناء عموماتهم- قبائل دار حامد- الذين انفردوا بنطقها .حسب الأصل "ألما".^(١)

ومما ورد ممالاً في لغة الحمر ما حوته قافية الأبيات التالية^(٢):

زولى خَطَرُ صيفٍ وهَلَّ شِتِي *

نسمع جس قعوده رغي *

يا شوق قليلاً غاب معاه وجي *

همى مَطَرٌ ليلي ونهارى غني *

والشاهد فيما ذكر الكلمات: شتي، رغي، جي، غني إذ أميلت إمالة صغرى مطابقة للمقطع النطقي للكلمة الإنجليزية Gay وأصل هذه الكلمات: شتاء، رَغَا، جاء، غِنَاء وهكذا عبّرت تلك الفتاة بأنَّ مَنْ تهواه قد نزح عن مقامهم صيفاً وبعد غيبة أطلَّ في فصل الشتاء كالهلال المرتقب ، وطفقت خفقات قلبها تترى سراعاً عندما سمعت رغاء بغيره وهو يترجّل ليحيي النَّاس. وأبانت بأن الهموم قد أطبقت عليها كالرَّهَام ولا سلوى لها إلا الغناء ليل نهار. وقرأ على هذا

(١) مرجع سابق ذكرياتي في البادية حسن نجيلة، ص ٤٥ .

(٢) مقابلة: مخاوي ود علي - تردد أبي زيد ١١/٤/٢٠٠٧م.

النسق المُمال أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف، قوله تعالى: (فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا)^(٣) والشاهد لإمالة الفعل "أفترى" *^(٤).

وخلاصة القول نستنبط بأنَّ الحَمَرَ لغتهم الفتح إلا ما ندر وذلك موافق لنهج قريش التي لا تحبُّذ الإمالة في ألسنتها، إذ أنَّ أصحاب الإمالة كُثر بنجد^(١)، وأشهرهم تميم وقيس وأسد^(٢)، ومَنْ استوطن في ديارهم من القبائل ذات الجذور الحجازية كخزاعة وسعد بن بكر^(٣).

^(٣) سورة الكهف: الآية (١٥).

^(٤) معجم القراءات، مرجع سابق، ج ٥، ص ١٦٠.

^(١) عبد الفتاح شلبي: في الدراسات القرآنية واللغوية، ط ٢، دار الشروق، جدة، ص ١١٠.

^(٢) لغة تميم: مرجع سابق، ص ٢٧٣.

^(٣) لهجة قريش: مرجع سابق، ص ٩٤.

المبحث التاسع: الإتياع

نقول تبع الشيء إذا سار في أثره وتلاه وتبع المصلي الإمام إذا حذا حذوه واقتدى به^(١). قال الأخفش: تَبَعْتُهُ وَاتَّبَعْتُهُ بمعنى واحد مثل رَدَفْنُهُ وَأَرْدَفْتُهُ^(٢) ومنه قوله تعالى: (إِلَّا مِنْ خِطْفِ الْخِطْفَةِ فَأَتْبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ)^(٣) وقد ورد وضع الإتياع موضع التتبع مجازاً كما في قول القطامي:

وخير الأمر ما استقبلت منه وليس بأن تتبعه أتباعاً^(٤)

والتتبع ولد البقرة في حوله الأول لأنه يتبع أمه. وأطلق على ملوك اليمن قديماً التتابعة ومفردها تبع ودار التبابعة بمكة ولد فيها النبي - صلى الله عليه وسلم والتتبع أيضاً الظل لأنه يتبع صاحبه. وكذلك يعسوب النحل^(٥). ويقول صاحب البستان: اتبعت الرجل بمعنى قفوته^(٦). والاتباع اللغوي فحواه الإتيان في الكلام بلفظتين متواليتين على وزن تؤكد إحداهما الأخرى^(٧). وقال عنه ابن فارس: للعرب إتياع. وهو أن تتبع الكلمة الكلمة على وزنها ورويها إشباعاً وتأكيداً ومن ضروبه أن تكون الكلمة الثانية ذات معنى. وهذا يطابق ما أشار إليه أبو علي القالي بقوله "ضرب يكون فيه الثاني بمعنى الأول" فيؤتى به تأكيداً له لأن اللفظ مخالف للأول نحو: قسيم وسيم وكلاهما بمعنى جميل، وكثير بثير وكلاهما بمعنى واحد. ومثل ذلك شهلة كهلة وضئيل بئيل وجديد قشيب. ومن صور الإتياع أن الكلمة الثانية غير واضحة المعنى ولا بيّنة الانشقاق إلا أنها كالإتياع لما قبلها كقولهم عفريت نفريت واختُلف فيما أقرن بالواو نحو حيّاك الله وبيّاك بمعنى أضحكك ويرى الكسائي بأن الإتياع لا يكون بالواو على ما ذكر أنفاً^(٨). ومما يرد من إتياع على السنة الحمر وكثير من أهل كردفان قولهم زرعت بلادى حدادى مدادى. والبلاد يطلقونها على الأرض الزراعية. والبلاد فى

(١) د. إبراهيم أنيس وآخرون (١٩٧٢م): المعجم الوسيط، ج ١، الناشر مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ص ٨١.

(٢) الصحاح للجوهري: مرجع سابق، ج ٣، ص ١٩٠.

(٣) سورة الصافات: الآية (١٠).

(٤) الصحاح للجوهري: ج ٣، مرجع سابق، ص ١٩٠.

(٥) القاموس المحيط للفيروز أبادي، مرجع سابق، ج ٣، ص ٨.

(٦) عبد الله البستاني: البستان، دار صادر، بيروت، ص ١٠٢، مادة "تبع".

(٧) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ص ٢٢.

(٨) المزهري: مرجع سابق، ج ١، ص ٤١٤.

اللغة مفردها بلد وبلدة. ويسمى المكان الواسع من الأرض بلداً^(٩) وفى التنزيل العزيز: (البلد

الطيب يخرج نباته بإذن الله)^(١) إذن أن معنى بلاد لدى الحمر مطابقاً تماماً لما ورد فى الآية. بل ويضفي عليها إتباع "حدادى مدادى" معنى أدق تعبيراً وهو استصلاح رقعة أرض فسيحة الأرجاء مديدة الحواشى وعلى سبيل المجاز كأنها لا تحد بحدود على مدى البصر وكم سمعت الحمر وأهل كردفان يقولون عندما ينهلّ الغيث مدراراً: "السيل جاب الهاو- لاو- أو- الهاو- واللاو" ولعل ذلك يذكرنا بقريض امرئ القيس الذى يصف ودقاً مدراراً ووادٍ تلاطمت سيوله:

على قَطْنٍ بالشَّيمِ أَيْمَنَ صَوْبَهُ وَأَيْسَرَهُ عَلَى السَّتَارِ فَيَذْبُلُ

فَأُضْحَى يَسْحُ الْمَاءَ حَوْلَ كُنْفَةٍ يَكْبُ عَلَى الْأَذْقَانِ دُوْحَ الْكَنْهَبِلِ^(٢)

والحمر يقصدون- على وجه الدقة- بالعبرة السابقة ما حمله السيل من غثاء، وأصل الكلام - فيما أرى "الهاوى واللاوى" فحذف الياء تخفيفاً فى الكلمتين والهاوى فى اللغة هو الجراد^(٣) ويعنون به- فى اعتقادى ما طفا على السيل من هوام الأرض. واللاوى مشتقة من اللوى وهو ما التوى من الرمل بفعل الريح أو انسياب الماء^(٤). وتدفعه، ومن ثم يتضمن معنى الكلمة كل ما ثناه تيار الماء بعنفوانه وجرفه السيل بطغيانه من مستدق الرمل وفتات الحطام. وقديماً طلب امرؤ القيس بن حجر من خليليه التوقف برهة عند منحى الرمل "سقط اللوى" ليسترجع ما انصرم من أيام الهوى

قفًا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل^(٥)

والحمرى إذا أربكه أمر ما وأسقط فى يده - يقول كغيره من أهل السودان "خلانى فى حيص بيص" أى فى حيرة محكمة. وهذا التركيب وارد فى كلام العرب إذ يقولون هم فى حَيْص بَيْص. وأيضاً فى حيص بَيْص^(٦).

(٩) المعجم الوسيط: مرجع سابق، ج ١، ص ٦٨.

(١) سورة الأعراف، الآية (٥٨).

(٢) ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص ٢٤.

(٣) القاموس المحيط، مرجع سابق، ج ٤، ص ٤٠٤. مادة "هوى".

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٨٧.

(٥) ديوان امرئ القيس، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٦) الهادي، حسن الكرّمى: مرجع سابق، ج ١، ص ٥٦٦، مادة "جبص". لسان العرب، مرجع سابق، ج ٧، ص ١٩، مادة "حيص".

ومن عبارات الإتياع التي سمعتها من الحمر "قنابر حنابر" وقد يقال قنابر وحنابر . فقد لمحت مرة بدويًا من الحمر مع ابنه يعبران طريقاً مزدحماً في قلب المدينة. وفجأة طاح الابن أرضاً بعد أن تعثر من ارتطام بمقدمة سيارة مسرعة. ثم انتصب واقفاً وقد تغفر بالتراب.

والتف حوله رهط من المارة يؤلبونه على الاقتصاص من السائق المتهور. وعندها ابتدرهم والده في شهامة قائلاً "يا جماعة ما تسوو الموضوع قنابر حنابر – الحمد لله على سلامة ولدي" وانفض الجمع وهم في عجب من مروءته.

وإذا سبرنا غور العبارة نجد أن كلمة قنابر مفردها "قُنْبُر" ونحن في العامية ننطقها بالإشباع "قنبور" وهو فضل ريش قائم على رأس الطائر^(١). والقنبر طائر صغير له مثل ذلك الريش^(٢). والجمع قنابر. أما كلمة حنابر فهي من باب تثنييت الكلام.

فقد روى أن بعض العرب سئل عن هذا الضرب من الإتياع الذي لا يكاد السامع يستجلى بعض معاني مفرداته، فقال: هو شئ ندد به كلامنا، أي نثبت به كلامنا كقولك: وَتَدَّ البدوي الخيمة أي ثبتها. ومما يماثل قولهم "قنابر حنابر" ما أورده أبو عبيد في غريب الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم في الشُّبْرَم وهو ضرب من الشيخ – إنه حارُّ يارُّ قال الكسائي حارُّ من الحرارة ويار إتياع .

وخلاصة الحديث أن قول الحمر "قنابر حنابر" يوافق صيغ بناء اللغة العربية لألفاظ الإتياع. وهذه العبارة يراد بها تهويل صغائر الأمور. ومن أساليب الإتياع الفصيحة التي تدور أحياناً على ألسنة الحمر وأهل كردفان قولهم "سقط لقط" في نحو "فلان جايب بضاعة من سقط لقط" كناية عن المكان البعيد. إلا أن استعمالها لا يقتصر على هذا الصياغ الذي أورده العلامة عون الشريف قاسم في قاموسه فقد نذت هذه العبارة إلى مسمعي من ريفي بديار الحمر بمعنى مغاير لما سلف ذكره، إذ طفق يقدر خصمواً له جبلوا على الجشع والاحتيال: "ناس سقط لقط ما نافعين" وقد يقال سقاط لقاط وفي هذا الإتياع مبالغة لمن يمعن في حيازة ما يمتلكه الناس بحيل مكررة وأساليب شتى تعوزها النزاهة. والسقط في اللغة هو الساقط من كل شئ. والعرب تقول: "لكل ساقطة لاقطة أي لكل كلمة سقطت من فم ناطق نفسٌ تلفظها وتعيها ثم تضيعها"^(٣) وهذا

(١) القاموس المحيط: مرجع سابق، ج٣، ص١٢٣. مادة "قنبر"

(٢) الهادي، حسن الكرعي: مرجع سابق، ج٣، ص٥٧٠. لسان العرب، مرجع سابق، ج٧، ص٣١٦. مادة "سقط".

(٣) المعجم الوسيط، مرجع سابق، ج١، ص٤٣٧.

المثل يضرب لحفظ اللسان "والسقاط هو الذى يبيع السقط من المتاع، أى التافه منه

كالتوابل مثلاً^(٤) وفى الحديث عن خصاله صلى الله عليه وسلم فى

التواضع الجم "كان لا يمر بسقاط ولا صاحب بيعة إلا سلم عليه"^(١) وقد ورد فى كلام العرب ما يؤيد المعنى الثانى لهذا الإتيان والذى بسطته سابقاً، إذ يقولون: حيثما سقط لقط. أى حيثما كان المحتال وجد نجاحاً. وقد تعنى حيثما استترق الواشى السمع لحديث بثه^(٢).

ويتضح لنا جلياً أن قول الحمر "سقط لقط" إتيان عربى فصيح من حيث المبنى والمعنى وإن اختلف مدلوله من موقف لآخر. ومن أساليب الإتيان لديهم قولهم: "فلان هجّام رجّام" لمن يتهم الناس دون تثبت أو تحقق من جلية الأمر.

وفى ختام هذا الفصل أود أن أشير إلى بعض الأصوات الدخيلة التي تأثرت بها لهجة الحمر. ومن هذا الضرب الحرف (نچ) والذي يدور كثيراً في بادئة اسم مدينة "نيالا" بغرب السودان، وأصل الكلمة باللهجة المحلية من حيث النطق "نچالا" ويطلق الحمر وأهل كردفان على الغض من نخب ثمار نبات اللوبيا (نچرمتي). وسمعتهم يطلقون على كومة الهشيم في الحقل أو في العراء لفظة (كنچيته) والبعض ينطقها (كنيته). وسمعت أيضاً منهم كلمة "نچلم" بمعنى اقتطع أو بتر. وهنالك حشرة سمراء ذات أجنحة تشبه الجعل تققات من أفنان شجر الهشاب تسمى "أبو نچاروما".

أما الصوت الدخيل "چ" الذي نجده في بادئة كلمة "chair" الإنجليزية ولاحقة كلمة "church" فيندر استعماله عند الحمر ونجده في كلمات قليلة جداً، ومثال لذلك بلدة "أم قرناً چاك" التي تقع في الطرف الجنوبي الغربي من دار حمر.

ومن الأصوات الدخيلة في لهجة الحمر الصوت "NG" ويرد في كلمات قليلة جداً كقولهم: "كدNGل" للعظم الناتئ في مؤخرة عجز الدابة العجفاء. وفي رأيي أن الكلمات السابقة اقترضت هذه الأصوات الدخيلة من اللغات الحامية على الأرجح في البيئات التي استوطن فيها الحمر.

(٤) الصحاح، ج٣، ص١١٣٣. مادة "سقط".

(١) الصحاح، ج٣، ص١١٣٣. مادة "سقط".

(٢) الهادي، حسن الكرمي: مرجع سابق، ج٢، ص٣٥٩. لسان العرب، مرجع سابق، ج٧، ص٣١٦. مادة "سقط".